تصدير

بقلم فضيلة الأستاذ/ محمد الصالح الصديق

كلمتان اثنتان لهما من السحر والتأثير على المشاعر والأحاسيس ما يصعب على القلم تصويره مهما أوتي من قدرة في البلاغة والفصاحة والبيان هما الحرية والديمقراطية، فقد لا تتسع مجلدات ضخام لعرض ما قاله الكتاب والشعراء في التغني بمحاسنهما، وما قاله رجال الفكر في مفهومهما، وتحديد معالمهما، في هذا العصر الحديث،دع عنك ما قالوه في مختلف العصور الغابرة !!

وإذا كان الأحرار في كل الشعوب المستعمرة قد تغنوا بالحرية في أشعارهم وأناشيدهم، وحفروا حروفها في قلوبهم فإن أحرار الشعب الجزائري أكثرهم تغنيا بالحرية، وتمجيدا لها وتلهفا إليها لطول ليل الاستعمار، وشدة ظلامه، فكم من وطني مكبل في السجن مزق الحديد يديه ورجليه لأنه تغنى بالحرية، وكم من وطني صادق الوطنية عذب حتى لفظ أنفاسه الأخيرة وعلى شفته بسمة الرضى لأنه هتف بحياة الجزائر وحريتها !!

وهذا زعيم الجزائر الروحي وإمامها المصلح الإمام عبد الحميد ابن باديس يرى الشعب الفرنسي يحتفل بذكرى 14 يوليو سنة1993 الذي اندك فيه حصن باستيل وانتهى به عهد الظلم والاستبداد وبدأ عهد الحرية والمساواة، فتثور في أعماقه دفائن الأسى، وتهيج أحاسيسه وعواطفه، ويهفو قلبه إلى الحرية في لهفة الظامئ، وتحرق المشتاق فيصعد زفرات حرى، تتلظى بين شفتيه فإذا هي هذه الكلمات الواهة"إننا هنا نحتفل بالحرية، ونفرح مع الأحرار وإن لم نكن نلنا من تلك الحرية حظنا، والمسجون الشريف يفرح بحرية الناس وإن كان هو سجينا ! !"

ثم تساءل الإمام وهو يتطلع إلى الفجر وراء الأفق المظلم ويقول:"فهل نحتفل بيوم الحرية في المستقبل ونحن أحرار؟. تلك هي الحرية الغالية التي لا تتحقق إلاعلى جسر من الأشلاء، وفي بحر من الدموع والدماء !!

أما الديمقراطية فهي الأخرى غالية لا تنال إلا بجهاد فكري طويل قد تتخلله مناوشات ومشاغبات وفتن كقطع الليل، وكم ممن سجنوا وعذبوا في سبيلها، وكم تلهفت القلوب شوقا إليها، وكم سبحت النفوس في فيض من الشعور بالحياة العزيزة الكريمة في أحضانها، وكم برح الشوق برجال

ونساء إليها ثم ماتوا وفي قلوبهم حرقة وفي نفوسهم حسرة، وفي عيونهم دمعة، حيث لم يتمتعوا بنعيم الديمقراطية و لم يتفيأوا ظلالها الوارف يوما.

وكم قالوا في الديمقراطية، وكم كتبوا !!

إن كل من قال عن الديمقراطية أو كتب فيها، قديما أو حديثا قال إنها عدل، وإنصاف، وبر، وإحسان، ورحمة بالضعيف، وسمو بالإنسان إلى مستواه الحقيقي وتجرد من الأنانية والأثرة والكبرياء !!

ومعنى الديمقراطية.. بإيجاز حسب آرائهم وأقوالهم حياة تشبه الحيلة في الجنة، لا غول فيها ولاتأثيم، ولا يصدع أهلها عنها ولا ينزفون !!

تلك هي الحرية والديمقراطية: الكلمتان الخفيفتان على اللسان، الثقيلتان في الميزان !!. **إنهما في عالم الفكر والتخيل والتصور والحلم جنتان لا أسعد ممن يعيش في أحضانهما !وهل هما كذلك في الواقع المحسوس ؟**

أجل إنهما نعمتان عظيمتان، ولكن لمن أدرك حقيقتهما، وفهم طبيعتهما، وتهيا نفسا وأخلاقا لمتطلباتهما، وما تتقاضيان من جهود وتضحيات من أجل أن تظلا على الجادة من غير أن تنحر فا أو تبتعدا عن أهدافهما !!

فإذا كان الشعب قد بلغ من النضج والوعي مستوى يهيئه لممارسة الحرية أو الديمقراطية بأن فهمهما جهادا وتضحية، ومساواة في الحقوق

والواجبات، ومشاركة في الغنم والغرم، والمنحة والمحنة، فهما نعمتان، أما إذا كان الشعب ليس في هذا المستوى، بأن فهم الحرية والديمقراطية إخلادا إلى الراحة، وتنعما باللذات، وتنافسا في الحكم والقيادة والزعامة، وانطلاق كل واحد وراء هواه ونزوعه، فإن الحرية أو الديمقراطية عندئذ تكون وبالا على أهلها وخطرا دون خطر الاستعمار وخطر الحكم الفردي !!

وهذا المصير السيئ الذي انحدرت إليه الجزائر لا يدل إلا على شيء واحد هو أن الشعب الجزائري انتصر في حربه ضد العدو الخارجي رغم قوته الطاغية التي لا تقاوم لولا بطولة هذا الشعب ووحدته وتضحياته، ولكنه انهزم عندما أصبحت الحرب بينه وبين نفسه، بينه وبين هواه، وأصبح نجاحه أو خسرانه مرهونا بالطبيعة والكيفية التي يمارس بها هذه الحرية، وبمستوى إدراكه لمعنى الحرية ! !

قد يقال أن الحكام هم الذين لم يكونوا في المستوى القيادي، حتى قادوا الشعب إلى هذا المصير السيئ العفن، والحكام ليسوا من هذا الشعب ؟

دعنا من الحرية ولنركز قليلا في الديمقراطية التي أصبحت الآن في الجزائر أنشودة على ألسنة الناس جميعا، ومهوى قلوبهم ومشاعرهم !!

إن النهضة الصحيحة الواعية نحو الديمقراطية معناها غافل أحس وجوده، وخامل فهم نفسه، وجاهل عرف حقه، وضال وجد نفسه،

ومخطئ أدرك الصواب، والحياة إذ ذاك كحياة طبيعية فعالة، ومقدمة إيجابية للرخاء والازدهار، والحياة إذ ذاك تسري في مختلف أفراد الشعب الناهض كما تسري الحياة أيام الربيع في النباتات المنبعثة بقوة وفعالية نحو الوجود ونحو الحياة !!

والديمقراطية في هذه الحال نعمة على الشعب لأنه تأهل لها، وصار جديرا بها وهي لائقة به:"ليست العبرة بما يتناوله الإنسان من ألوان الطعام وإنما العبرة بما يتمثله جسمه منها"(الهلال ج9 س31 يونيو1923).

وهذه نظرية صحيحة، وحقيقة خطيرة، فالكثير من دعاة الديمقراطية في مختلف الأمم والشعوب يغفلون هذه الحقيقة وينسون ـــ أو يتناسون ـــ خطورتها ، ويلحون في طلب نظم وقوانين هي جميلة من حيث هي تصورات ونظريات وأحلام ولكنها عند التجربة والتطبيق يصعب تحقيقها ونقلها إلى الحياة المعيشة كما يجب !!

ومن هنا نلاحظ في أسى ومرارة أن الديمقراطية حلم الناس جميعا وأغنيتهم المفضلة ولكنها لاوجود لها في العالم إلا بين الأقوياء أما الضعفاء فهم على الدوام ضعفاء، عبيد الأقوياء وخدمتهم، ولا يشعرون بشيء يدعى الديمقراطية إلا فيما يسمعون عنها في خطب الحكام والزعماء !

فأين الديمقراطية في العالم ؟

أهي ديمقراطية أمريكا التي تمون إسرائيل وتمدها بكل وسائل الحياة لتسفك دماء المسلمين في فلسطين ؟ **أم هي ديمقراطية فرنسا التي جثمت على الجزائر قرنا وربع قرن، وأذاقتها ألوانا من العذاب المهين، ثم ما تزال تتدخل في شؤونها حتى وهي حرة مستقلة !**

وهل من الديمقراطية هذه المذابح والمجازر التي تقام هنا وهناك في مختلف أرجاء العالم، وهذه المجاعات الرهيبة التي تفترس الفقراء المعوزين، والضعاف المنكوبين في كل أنحاء المعمورة، وهذا التمييز العنصري الذي مافتيء يرفع قوما ويضع آخرين؟

ويتسع المجال، ويمتد الحبل، إذا نحن تتبعنا الديمقراطية عند الدول الغربية والشرقية على أن التجارب التاريخية أثبتت أن الباطل ــ وهو كل مالا يرتضيه العقل، ولا يتفق والحياة الطبيعية وسنن الوجود ــ لا تستقر أقدامه إلا حينما يغفل عنه أنصار الحق، ويستسلمون للضعف ويرضخون للهوى، أما عندما تنسى الأغراض والمصالح الشخصية وتكتل الجهود وتوحد الصفوف فإن الباطل لابد أن ينهزم ويندحر أمام الكتائب المؤمنة الصامدة !

والجزائر أصيلة المعدن، غنية بكتائب الإيمان، التي ستعمل بكل جهد وإخلاص لتخرج بالجزائر من محنتها مرفوعة الرأس، قوية الإرادة، حتى

تمارس حريتها وديمقراطيتها على أحسن وجه، وتضع في السلم معجـــزات كما صنعتها في حرب التحرير الخالدة.

ورغم كل ما قدمناه عن مخاطر الديمقراطية وأنها محصورة في الأقوياء والأغنياء، يجب على أهل الفكر والقلم أن يظلوا مع الديمقراطيـــة يجلـــون حقيقتها، ويصححون مفاهيمها، ويرفعون الناس إلى آفاقها البعيدة المشـــرقة، ويوقظون الضمائر حتى تكون الحارس الرقيب على الحركة والسلوك !

ومادامت هناك نفوس صحيحة لم تصب بمرض، و لم تلوث بوســـخ، وهي متعطشة إلى العدل والإنصاف والإخاء والمساواة مع ما يشاهد مـــن التقدم العلمي، الحضاري، فلايستبعد أن تصبح الديمقراطية حقيقة لا حلـــم وواقعا لا سرابا، وظلا وارفا تتفيؤه الإنسانية التي أوشكت أن تيـــأس مـــن الحياة، وترى أن بطن الأرض خير لها من ظهرها !!

وصاحب هذا الكتاب الأستاذ/عبد القادر رز يق المخـــادمي ممـــن يهتمون بقضايا الساعة، ويواكبون تطوراتها وتحولاتها على ساحات الحيـــاة، ويشدهم إليها ما يقال عنها من دعاة التقدم والتطور، أو من دعاة الرجعيـــة والتأخر، وقد سبق له أن خاض هذا الميدان، في تجارب مختلفة وكان رائـــده فيها خدمة الحقيقة، والسعي وراء الأوفق الأنسب، وكانت له في هذا المجـــال كتب لم يطل وقوفها على أبواب دور النشر والمطابع.

وأذكر أننا كنا منذ أيام خلت في مكتبي بالمنزل نتحدث عن قضايا الساعة، ثم وقفنا طويلا عند البشرية اليوم وهي مسوقة بقوة في تيار هائل، هو تيار الديمقراطية، هذا التيار الذي ما برح يقوى ويتضخم جارفا كل ما يعترضه في طريقه، فلم يبق شعب من شعوب الأرض لم يهف إليها، ولم يتطلع في تحرق إلى حياة قوامها العدل والإخاء والمساواة، وكل يسائل نفسه: أتظل الحياة هكذا دائما في اضطراب وتمايز؟ أليس لهذا الليل المظلم الطويل من فجر؟

إن الله تعالى يريد أن تكون هذه الحياة حقا مشاعا لسائر الناس، لا يختص به قوم دون قوم، ولا أمة دون أمة، فلم هذا التطرف وهذا الإجحاف وهذا التمييز؟

شعرت وأنا مع هذا المولف في مناقشة الديمقراطية، أنه يوجه فكره إلى الهدف، ويجمع نوازعه وميوله لمعالجة الموضوع بما يترصد له من معان وملكات وأفكار !!

وهذه ظاهرة إيجابية في المولف يجب تسجيلها وهي أنه لم يكد ينتهي من هذه المناقشة عن الديمقراطية، في جلسته معي حتى بدأ يفكر جديا في إعداد كتاب عنها، ثم مازال هذا التفكير يلح عليه ويأخذ مجراه الجدي

والعملي في حياته الفكرية حتى وجد نفسه في ركام من المراجع يبحث عن أهم الطرق، وأجدى الوسائل لمعالجة هذا الموضوع الخطير الشائك !

و لم تمض إلا فترة قصيرة حتى أعلمني أنه قد قطع شوطا هاما في الكتابة، وأنه عما قريب سينجزه ويفكر في طبعه !!

وقد أنجز في وقت قصير كما خطط له وأراد، وأبدى لي رغبته في تقديمه، وقبلت هذا الشرف رغم أن كتابه الأخير (الإعلام والمستقبل : أفكار ورؤى) كان بقلمي تقديمه، مما يجعل اعتذاري له مقبولا لو اعتذرت، ولكني رأيت أن الاستجابة لرغبته نوع من التقدير لمجهوده، واعتراف له بجهاده الفكري والقلمي !!

أنه قد أنجز هذا الكتاب في وقت قصير رغم الوظيفة وتكاليفها وتضييقاتها، ورغم العائلة ومتطلباتها ومسؤولياتها، إنها الهمة التي لا تقف أمامها الحواجز والعقبات، والأمل الطموح الذي يعج في الدم، ويشرق في القلب، ويشمخ إلى الذروة !!

وهذا درس لأولئك الذين يأملون ويخططون، ثم هم لا ينجزون ولا يحققون، بل إنهم لا يكادون يعزمون على أمر في ثورة حامحة من الحماسة وفي فورة من التصميم والإصرار حتى يصيبهم الفشل فتتبخر الإرادة، وتتلاشى العزيمة، فكأنهم ما أرادوا وما عزموا !!

وبقدر مانهنيء المؤلف على هذا الإنجاز القيم، وفي هذه الظـــروف العصيبة التي تمر بها الجزائر، والتي تصاب فيها العقول بشـــيء مـــن القلـــق والاضطراب نرثي لأولئك الذين يـــأملون ولا يحققـــون، ويخططـــون ولا ينفذون، ويقولون ولا يفعلون، ونحمس في آذانهم بهذه المناسبة: أن الحيـــاة تطرح من حسابها كل من لا يشعرون بدوران الفلك، ولا يفطن لحركـــات العالم، ولا يضيف بجهده الفكري أو العضلي ما يدل على وجوده فوق هذه الأرض !!

أما مفتاح هذا الكتاب، ودليل القارئ فيه ووثيقة مروره من بـــاب إلى باب، وفي تجواله في مروجه ومباهجـــه ومـــرا بعـــه، فـــهو قـــول الله تعالى:((وأمرهم شورى بينهم))، وكلمتا المصلحـــين الثـــائرين: الأفغـــاني والكواكبي !!

ولم يبق بعد هذا ـــ قارئي الكريم ـــ إلا أن أتمنى لك رحلة ممتعـــة مفيدة مع هذا الكتاب .

محمد العالم الصديق

بين يدي الكتاب

بقلم الأستاذ/علي بن غانم المحامي المعتمد لدى المحكمة العليا والأستاذ بكلية الحقوق والعلوم الإدارية بجامعة الجزائر

طلب مني زميلي في الدراسة الأخ الكريم الأستاذ عبد القـــادر رزيـــق المخادمي أن أكتب افتتاحية أو تقديما لكتابه الذي سينشر قريبا ـــ إن شـــاء الله ـــ تحت عنوان "آخر الدواء ..... الديمقراطية". فحاولت أن يعفيني مـــن هذه المهمة التي شرفني بها ، ووضعني فوق المستوى الثقافي والعلمي الـــذي يهيئني لتقديم كتاب له وهو صاحب كتب عديدة منشورة لهـــا مكانتـــها العلمية المرموقة بما أتاه الله من ثقافة واسعة ، ومنهج علمـــي قـــائم علـــى التحليل والقدرة على التبسيط، ولكن حسن ظنه بي جعله يصر على رغبتـــه والأستاذ المؤلف قد اكتسب خلال مشواره الطويل كصحفي قدير تجربـــة واسعة رائدة في هذا الميدان؛ واستعان في طلبه هذا بأستاذ جليل تعلمنا عنـــه منذ صبانا ولانزال نتعلم عنه ، ونستهدي به كلمـــا انتابتنـــا حـــيرة ، أو أحسسنا بضعف أو يأس يداهمنا، فنجد فيه نعم الأستاذ المرشد والطبيـــب الحكيم حفظه الله ورعاه . مما جعلني أقدم على تحقيق هذه الرغبة مكتفيـــا بصورة وجيزة لكتاب الأستاذ عبد القادر رزيق المخادمي تحـــت عنـــوان

وبمضمون فلسفي واجتماعي وسياسي شغل الفكر البشـــري منـــذ غـــابر العصور. وقد يبقى مادام الإنسان على هذه الأرض من أهم المسائل الـــتي شغلت وتشغل الفكر البشري بمختلف طبقاته من العامة كـــانت أو مـــن الخاصة .

إن الأستاذ عبد القادر رزيق المخادمي قد عالج في كتابه "آخر الـــدواء ..... الديمقراطية " الديمقراطية باعتبارها الصيغة الأنسب لنظام الحكم حيث يحكم الشعب نفسه بنفسه ولصالحه . وقد قام بدراسة الديمقراطية دراســـة قائمة على الجمع بين الجانب النظري والأكاديمي ، والجانب العملـــي مـــع تقديم وصف وتحليل لمجتمعات عدة ، ابتداء بالمجتمع الجزائري ، فـللعربي ، ثم الغربي.

وقد بين المفاهيم المتنوعة لعبارة الديمقراطية ، منتقلا إلى المبادئ التي تقوم عليها دون أن ينسى الأهداف الكبرى التي تسعى الديمقراطية إلى تحقيقها.

كما عالج بأسلوب ومنهج الدارس الباحث الصور التطبيقية للديمقراطيـــة مع تبيان مزاياها والأخطار التي يمكن أن تـــــترتب نتيجـــة الانحـــراف في استعمالها.

وتوصل المؤلف إلى إزالة الغموض عن مفهوم الديمقراطية ، ورفع الخطـــأ الذي وقع فيه الكثير ممن ظن أن الديمقراطية تعني الإباحية ، أو العلمانية ، أو

أن الإنسان يفعل ما يشاء دون حد يحترمه، أو واجب يقوم به ، أو مسؤولية تترتب عنه ويسأل عنها.

فالديمقراطية بمفهومها الحقيقي كما قدمها الكاتب هو ذلك النظام الذي يشترك ويساهم فيه كل أفراد المجتمع باعتبارهم مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات ، ولهم نفس المكانة في المجتمع حيث يعترف بها كل فرد للآخر دون تمييز أو إقصاء في إدارة وتسيير الشؤون العامة على مختلف المستويات عن طريق الميكانيزمات الخاصة بالديمقراطية.

وفي ظل هذا النظام يقل الفرق والتمايز بين الحاكم والمحكوم ، لأن الأخير مصدر السيادة ، والأول يستمد شرعيته من الشعب مانح السيادة. وبذلك يتوفر في كل منهما صفة الحاكم والمحكوم، ويسود التعاون في المجتمع . كما تزول عوامل النزاع والتنازع. ويتسم المجتمع بالإستقرارية والرضا الجماعي مما يمكن من انتقاء الحلول المثلى للمجتمع وإسناد المسؤوليات لأهل الكفاءة والدراية والنزاهة وفي ذلك خير البلاد والعباد .

والجدير بالإشارة أن المؤلف قد بين بجلاء أن الديمقراطية هي نموذج للحكم ، لا علاقة لها بالأيديولوجية. وأن الإسلام قد تبنى هذا النظام مع خصوصية الإسلام بصريح الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . وهذا التبيان

والتوضيح من شأنهما إقناع من يتهم الإسلام بأنه منـــاقض للديمقراطيـــة ، وإقناع من يتهم الديمقراطية بأنها معادية ومتناقضة مع الإسلام.

فالحق أن هناك قاعدة مشتركة بينهما من حيث إشراك الشعب في إدارة الحكم والاعتراف بالحريات التي هي مـــن خصـــائص الديمقراطيـــة وروح الإسلام .

وخاتمة القول أن كتاب الأستاذ عبد القادر رزيق المخادمي ـــ الـــذي شرفنا بتقديمه ـــ يعد مبادرة جديرة بالتنويه والتقديـــر في نشـــر الثقافـــة الديمقراطية في المجتمع الجزائري بوجه خاص، والمجتمع العربي بوجـــه عـــام. ونجاح الديمقراطية يحتاج إلى فهمها ، والإلمام بمختلف جوانبها ، حتى تعطـي النتائج الإيجابية . لأن الإنسان عدو لما جهل . وإذا كانت الديمقراطية هـــي الدواء الناجع كما سماه المؤلف. فيجب معرفة هذا الدواء ، وتناوله بالكيفيـة المناسبة ، وبالجرعات الملائمة دون إفراط ولا تفريط. فعدو الديمقراطية هـــو الجهل الذي يجب القضاء عليه . وركيزة الديمقراطية هي العدل ، وتأطير

العدل يتم بالقوانين المناسبة ، والمؤسسات الفعالة ، ونشر روح المواطنة التي تحفظ الكرامة للمواطن ، وتشعره بالاعتزاز لانتمائه إلى وطنه بكل مقوماته.

إنـــه كتاب جـــدير بالقراءة . نتمنى أن يعم نفعه العام والخاص.

علي بن غانم

الجزائر (بئر مراد رايس)

obeikandl.com

المقدمة

قيل عن الديمقراطية الكثير ... والديمقراطية أضحت مرادفا لحقوق الإنسان وحرياته الأساسية. وبقدر ما تبدو هذه الحقوق والحريات مكبوتة أو مسلوبة أو معدومة بقدر ما تشتد الحاجة الكيانية إلى الديمقراطية. وهي تتمحور في حدها الأدنى حول اعتبار الإنسان قيمة في ذاته وحقه ـ فرد أو جماعة في التعبير عن رأيه، وفي المشاركة في صنع القرار السياسي والاقتصادي والإجتماعي من أجل تحقيق تقدمه وسعادته ونهضة الوطن ورقيّه.

لقد ملأ علماء السياسة ورجالها والباحثين ـ عبر رحلة الزمن ـ آلاف البحوث والتحاليل حول ماهية الديمقراطية وخصائصها والحديث عنها بإسهاب ابتداءا من أفلاطون وفلاسفة اليونان ... ومرورا بفلاسفة الثورات الأمريكية والفرنسية والبلشفية وقادتها، من أمثال **روسو ومونتسكيو وفولتير** في فرنسا، **ولوك وهوبز** في انجلترا، **وجفرسون ومادیسون** في أمريكا، ومنظري "الديمقراطية الشعبية" في الإتحاد السوفياتي وكثير من الدول الإشتراكية ... وانتهاء بالعلماء المعاصرين الذين أضافوا بدورهم إلى الأقدمين فنونا في التحليل والتركيب لا تعدو أن تكون وسائل

للبحث، وضمانات لدقة المنهج المتبع فيه، دون أن تغير جوهره أو تضيف جديدا إلى موضوعه.

ويلاحظ أيضا، أن مفكري النهضة ورواد الإصلاح العرب، قد اعجبوا بالظاهرة الديمقراطية الغربية التي تقوم على أساس ما يسمى "بالقانون الطبيعي[1]" ... بعد أن قارنوها بأحوال مجتمعاتهم الإسلامية التي ابتعدت عن الحكم بمبدأ **الشورى**، والتفرد بالسلطة، والتعسف في استعمال الحق وما ترتب عن ذلك من ظلم وجور طاغيين، خاصة أن مبادئ المساواة والحرية والعدالة وحكم القانون، لا تتناقض مع جوهر الشريعة الإسلامية، وهكذا، كان استحلاؤهم منهج الغرب في الحكم وتأصيله إسلاميا، على أساس مبادئ الشورى في الإسلام، وبالتالي، فتعاطيهم الديمقراطية الغربية كان يتسم بالإيجابية، وكان شعار أولئك الرواد لماذا تخلف العرب

---

[1] تعود فكرة "القانون الطبيعي" إلى إحدى المدارس الفلسفية في بلاد الإغريق، وهي "مدرسة الرواقيين" التي أوجدت مبدأ المساواة التامة بين الأفراد نتيجة خضوعهم لقانون واحد هو "القانون الطبيعي" الذي يعمل على اتحاد جميع الأفراد في "مدينة العالم" وفي ظل هذه العائلة الكبيرة يسير جميع الأفراد إخوة متساويين، ويحاول كل منهم أن ينسق حياته الخاصة تنسيقا يساير ذلك "القانون الخالد الذي لا يتسنى له تعديله، لأنه أسمى من رغبات الإنسان.

انظر: جورج هـ . سباين، "تطور الفكر السياسي"، ترجمة: حسين جلال العروسي، مراجعة وتقديم: د.فتح الله الخطيب، (القاهرة: دار المعارف، 1964)، ج2، ص220 - 221

والمسلمون وتقدم غيرهم؟! "شكيب أرسلان"، (حاضر العالم الإسلامي، بيروت، دار الفكر ط4 1973)

وبفضل فضيلة الديمقراطية تغيرت تجاوزات النظم الحاكمة التي كانت، في السابق، تتجاهل في أحايين كثيرة المطالب الديمقراطية الداخلية فلا تعيرها أي انتباه، بل كانت تقوم بممارسات تعسفية حتى الإقدام على ممارسة جميع أنواع الإنتهاك، للحقوق المدنية والسياسية للمواطنين دون أن تخشى الإحتجاج الدولي. واطمأنت طويلا إلى صمت الحكومات الغربية التي مارست معها لعبة شد الحبل في التواطؤ، المعلن والخفي، بتعلة مواجهة الشيوعية واستئصال قواها المحلية ــ وقتها ــ أما اليوم، فيبدو أن هذه المرحلة من الراحة الدولية الممنوحة قد انقضى عهدها، إذ باتت الدول الكبرى مجبرة إلى فتح الديمقراطية وحقوق الإنسان في بلدان العالم الثالث بما فيها وطننا العربي، تحت وطأة ضغط رأيها العام ومنظمات حقوق الإنسان فيها، وتحت ضغط المؤسسات العالمية.

وقد أثمر نضال وضغط الرأي العام ومنظمات حقوق الإنسان في بعض البلدان العربية خاصة الجزائر أثمر نتائج مادية مؤكدة من جنس إجراءات تحسين أوضاع الحريات العامة وحقوق الإنسان، ولم يتوافر ذلك إلا بسبب توافر سندان خارجي لمطرقته، وليس ذلك السندان سوى الظرفية

العالمية الجديدة التي نشأت منذ انطلاق برنامج البيريسترويكا السوفياتي، وما كان له من تداعيات على الصعيد الكوني، من أقصاه إلى أدناه، لتفرض على النظام العربي الإفراج عن الحد الأدنى من المطالب الديمقراطية.

ومن النافل القول، أن تطور الأداء الديمقراطي ولو بشكل نسبي كجنوح معظم مؤسسات الإقراض المالي العالمية إلى فرض شروط سياسية على الدول العربية لقاء حصولها على قروض، وفي قائمة تلك الشروط تحسين أوضاع الحريات العامة وحقوق الإنسان بوصفها ضمانة ضرورية لها، وبالتالي، لم يعد يسمح لأي نظام سياسي بأن يتفاوض بحرية على إعادة جدولة ديونه، أو قصد الحصول على قروض جديدة، إلا على شروط واقفة، وهي الرضوخ إلى الشروط السياسية التي تفتح إمكانية ما من إمكانيات تحقيق الإنتقال الديمقراطي.

الديمقراطية في الوطن العربي، تطوراتها لا تزال محدودة، والخط البياني للتعددية التنظيمية لا يزال مقيدا، والإنفراج نسبيا في مجال الحقوق والحريات العامة. ولهذا الإتجاه ما يبرره نظرا إلى الأوضاع المتردية للحركة الشعبية في بلادنا العربية، وأحببنا أم كرهنا الطريق لا يزال شاقا نحو الديمقراطية، والدعوة إلى هذه الأخيرة قضية نخبة لا قضية جماهيرية.

حاضرنا مليء بألغام شديدة الإنفجار، حيث هناك من يرفع رايـــة التناقض الأبدي بين شورى الإسلام وديمقراطية العصر، وثمة من يرى الأخذ بأفكار الحداثة والإستفادة من النظم الغربية كفرا وإلحادا، ودعـــاة الـــرأي الثاني يضعون العقبات أمام التقدم الحقيقي لبلادنا، ويضعونها على شـــكل ألغام فكرية وسياسية، ودينية وأخلاقية، اقتصادية واجتماعيـــة، وبالتـــالي، يرفضون الديمقراطية لأن فيها خطرا حقيقيا علـــى مناصبـــهم ومراكزهـــم ومصالحهم الإقتصادية.

وهكذا جاءت صدمة الديمقراطية، والتناقض معها مرة باسم الإسلام ومرة أخرى باسم الأمن، ومرة أخرى باسم الدين، ومرة أخـــرى باســـم الوطن. وإذا تم الإتفاق على الهدف القومي العام جاز لكل منا الإختـــلاف حول الإجتهادات والأساليب، طالما ارتضينا الديمقراطية، وقبلنـــا بتعدديـــة مراكز الرأي وحرية الفكر، الأمر الذي يعني ألاّ تخوين ولا اتهـــام مســـبقا، فالكل وطني، والكل له حق الإجتهاد. ومن هنا تظهر ضرورة التوقف عنـــد مركز دائرة الإلتقاء بين الحكم والمعارضة وحتى لا نكون أســـرى شـــباك الفرقة والإختلاف.

إن الديمقراطية لا تعني اغتصاب حقوق المجتمع، ولا تعني السلبية والإهمال والتسيّب، والفهم المغلوط للديمقراطية هو الذي شجع على سقوط قيم الشرف والأمانة، وقيم العمل الذهني واليدوي، وصعود قيم السلب والنهب، فإذا بمقياس الزمان الشائع الآن هو الثراء، حتى لو كان مجهول المصدر. وتبقى فضيلة الحوار الديمقراطي المتكافيء صمّام الأمان في مواجهة تحديات المستقبل.

والله تعالى من وراء القصد وهو يهدي إلى سواء السبيل.

عبد القادر رزيق المخادمي

الجزائر (باش جراح)